الدكتور محمد صالح الأصيل

وعاد أبو الفرج

وعاد .. أبو الفرج

الدكتور محمد صالح الأصيل

وعاد أبو الفرج

أحاديث

الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م
موافقة وزارة الإعلام ٩١٢٠٦
تاريخ ٢/ ٣/ ٢٠٠٦م

صمم الغلاف وكتب الخطوط الأستاذ
جمال بوستان

أبدع وأخرج الكتاب
الدكتور محمد صالح الأصيل

حقوق الطبع محفوظة له

تعريف بالكاتب

تعريف بالكاتب

○ ولد في البوكمال بتاريخ ٧/ ١١/ ١٩٤٦م من أبوين ولدا في العراق ، ويعود نسبه إلى راوة التي ينسب أهلها إلى سيدنا الحسين بن علي رضي الله عنهما كما هو في كتب الأنساب .

○ درس الابتدائية والإعدادية والثانوية في بلدته البوكمال وكان أول طالب يدخل كلية الطبّ البشري من الذين نالوا الشهادة الثانوية من مدينة البوكمال نفسها .

○ حصل على الإجازة في الطبّ البشري من جامعة دمشق .

○ اختّص في بريطانيا في جراحة العين وطبّها ونال عضوية الكلية الملكية سنة ١٩٧٩ .

○ من أوائل الذين قاموا بعمليات قطع الجسم الزجاجي والشبكية في سورية وتناولت أحاديثه وسائل الإعلام المكتوبة والمحكية والمرئية .

○ يمارس عمله في عيادته الخاصة وفي قسم العيون التخصصي بالمركز الطبي الحديث بمدينة دمشق .

○ عُرفَ الأصيل طبيباً ولكن اهتماماته الأدبية والشعرية التي كان مفطوراً عليها ، والتي نمت بكثرة المطالعة والكتابة جعلت منه شاعراً وأديباً متميّزاً . وقد شد الناس بأحاديثه في مجالسه الخاصة وفي البرامج الأدبية في إذاعة دمشق.

○ كتب مئات القصائد منذ كان في الجامعة ولكن لم توافه الفرصة للنشر فجمعها وأخرجها في عدة دواوين بعد أن صار طبيباً .

○ عضو في اتحاد الكتّاب العرب .

□ من مجموعاته المنشورة :

نثراً :

١ ـ حدث أبو الفرج الطبيب :

كتاب أدبي يشبه في أسلوبه مقامات الحريري والهمذاني وبلاغة ابن المقفّع .

قدم له الأديب حسن حميد .

٢ ـ وعاد أبو الفرج :

كتاب يبحر بك إلى كنه الفلسفة ، وطيب العرفانية ، ومجد الكلام .

قدم له الأديب حسن حميد .

١ ـ أبو الفرج كحالاً :

كتابٌ من كتب التراث العربي الأصيل ذي الصلة والنسب بما قدمه ابن أبي أصيبعة وابن سينا وابن الكندي .

قدم له الأديب حسن حميد .

٤ ـ حقيقة الحجامة بين النص الشرعي والفهم الخاطئ :

رسالة قدم لها الأستاذ هشام الحمصي

شعراً :

١ ـ هدب القافية :

مجموعة غزلية كتبها خلال دراسته الجامعية وقدم لها الأديب أحمد المفتي .

٢ ـ تقاسيم على مقامات الوجع :

مجموعة في رثاء أهله وأحبائه ، وتوجّع على مرابع صباه ، وقدم لها الأديب أحمد المفتي .

٣ ـ درّة الشهداء :

ملحمة في استشهاد الطفل محمد الدرّة .

٤ ـ الأزمنة الحبلىٰ بالرفض :

مجموعة سياسية قدّم لها الأديب الكبير حافظ الجمالي .

٥ ـ قراءات في دفاتر الزمن :

قصيدة ملحمية تستلهم التاريخ لتصور واقع العرب والمسلمين .

قدم لها الصحافي الشاعر عصام قدوري .

٦ ـ للمدن الشرقية أغني :

مجموعة شعرية يبكي فيها الشاعر زمانه ، ويغني لبيئته .

قدّم لها الأديب الدكتور وليد مشوح .

٧ ـ قطوف من بستان القلب :

قصائد من القلب لمن سكنوا القلب . . .

قدم لها الشاعر نفسه .

٨ ـ صحبة الشعر :

حواريات مع أصحابه . . .

قدم لها الشاعر نفسه .

تتميّز مطبوعات الأصيل بالأناقة والجمال ورفعة الذّوق والتذوّق .

الإهداء

إلى

إمامِ المظلومين

وَقدْوَةِ الثائِرين

سيدي أبي عبدِاللهِ الحُسين

أُنبيكَ :

أنَّا مازِلنا نُظلَمُ ،

وَنُذبَحُ ....

وَلكِنَّنا صابرون

صالح

هذا الكاتب.. هذا الكتاب

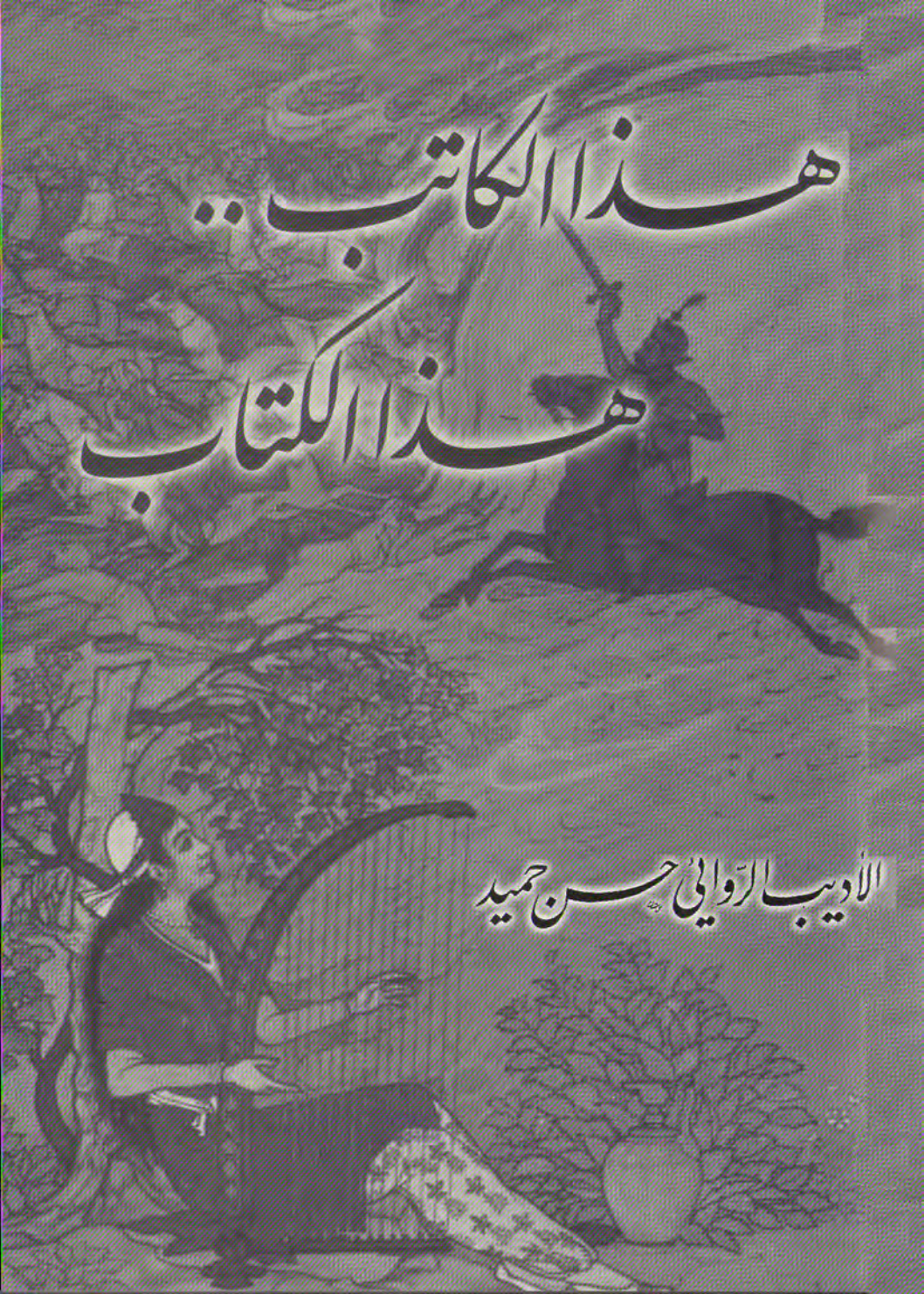

الأديب الروائي حسن حميد

هذا الكاتب.. هذا الكتاب

- ١ -

بدايةً ،

أقولها مصارحةً . .

ما أزكىٰ هذا الكاتب ،

وما أندىٰ هذا الكتاب ؛

فهو مرآةٌ تتجلىٰ فيها مكنونات الكاتب الشاعر الدكتور محمد صالح الأصيل ، هذا الرجل المثقل بالطيبات كالدوالي ؛ كما أنه

ـ أي الكتاب ـ روحٌ تترسم في الكَلِمِ العزيز لشاعرٍ كان بمقدوره أن يكتفي بأَحيازِ الشهرة التي أوجدتها له معرفته العلمية البهّارة ككحال عربي عزَّ نظيره ، كما كان بِمُكْنَتِهِ أن يكتفي بأحياز الشهرة التي أوجدتها له شاعريته المطبوعة التي أكّدت روح الأصالة والموهبة اللتين حباه الله عز وجل بهما ؛ كما كان بِمُكْنَتِهِ أن يكتفي بما حوله من أصدقاء طيبين يلتفّون حوله محبةً كأسيجة البساتين . لكن روحه الوثّابة نحو السمو ، وذهنيته النَّزوعَ نحو تجسيد القيم النبيلة وبيان معانيها ، وعزيمته المشدودة إلى قوس الحميمية والرفقة الطيبة . . كلّها تأخذه إلى حقولٍ معرفيةٍ من الندرة بمكان أن يقاربها أحدٌ في عصرنا الراهن لأنها لا تُسلسُ قيادها إلا للعارفين أولي العزم والرسوخ . وهذا الاقتحام ليس بغريب أو عزيز على الدكتور الأصيل الذي عرفته شاعراً مطبوعاً . . رهافته جارحة ، ووجده شفيف ،

وقولته نافذة ، ومعانيه ولود ، ومبانيه داهشة ، وحساسيته آسرة . فهو موسوعي الثقافة ؛ يطلب الصعب والعصي أنّى كان وأين كان من أجل إدراك المعاني والوقوف على نواصيها استجابةً لنداءات الذات التي عذّبتها الأسئلة الكاوية ، وحيّرتها مفاعيل الألم الظالمة . . فالرجل حين تجالسه أو تقرأ له . . لا تستطيع أن تضعه في خانة معرفية بعينها ، أو قل إنك تظلمه حين تؤطره في خانة معرفية واحدة . فالرجل شاعر ، وأديب ، وعالم ، ومثقف ، واجتماعي بامتياز . . له نفسٌ علوقٌ بالمعرفة تغذيها موهبة هي أشبه بالمنجم الذي تحتشد فيه الفلزات النادرة .

أما عصاميته فهي أشبه بالأنهار التي تحفر مجاريها وتعمقها بالمكابدات الصعبة ، والجولان المضني في النائيات الأباعد لكي يصير للمرئي معنىٰ وجدوىٰ . فهو رجل روّىٰ

ثقافته بالأسئلة ، والحوار ، واللوبان المعرفي الباحث عن الخواتيم الخالدة . وصقل حواسه بالدربة والمران لكي تصير لواقط للجمال المصفىٰ ، وأثث ذاته بالصبر على المكاره والطيبات قبولاً وتمنعاً في آن معاً حتى صار أشبه بأوتار الكمنجات . . كيفما مُست أطربت .

. . وهو ، أيضاً ، بمعرفته وسلوكيته أشبه بكتاب لم تنته صفحاته بعد ، وإن انتهت فمعانيها لا تنفد أبداً ، فإن قرأته في كتبه تشعر بالصفاء ، والسرور ، والامتلاء ، وإن جالسته تشعر بالرضا والوداد ، ففيه اجتماعٌ كاجتماعِ عيدان الحبق كيفما تحركت أزكت .

هـذا هـو الكـاتـب ، أمـا الكتـاب فقـد ساهرني ، وساهرته أوقاتاً ليلية طوالاً ، فلم أتركه ، ولم يتركني حتى أدركت ما فيه من علم ، وأدب ، وإبداع ، وغايات . فهو كتاب أشبه بالغدران التي تغرر مساحاتُها الضيقةُ

الناظر إليها فيظن أنها هينة بسيطة ، من الممكن إدراكها أو الإحاطة بها بلمحة . . لكن هيهات ، فأسرار الغدران في أعماقها لا في سطوحها ، وهذا الكتاب كذلك . . فللوهلة الأولى يظن المرء أنه كتاب قصصي ، وقد احتشدت فيه الأحداثُ ، والأخبار ، والأقوال ، والمرويات ، لكن حين يشرع في سبر معانيه ومبانيه يرى رأياً آخر فيظن أنه كتاب تراثي يرجّع صدىً كتاباتِ هؤلاء الأفذاذ الخوالد الذين كتبوا (البيان والتبيين) و(الإمتاع والمؤانسة) و(أحاديث الخلان ومساررات الإخوان) . . ثم حين يتعمق في القراءة أكثر يظن أن الكتاب ليس سوى مدونة عرفانية تبحث في المحجوبات والنائيات الذاهبات في الأسرار العميقة ، وحين يضعه المرء جانباً ويفكر فيه يشعر أنه كتاب عصي على التجنيس والتصنيف . هذه الحيرة هي التي تجعل هذا

الكتاب كتاب عطشٍ يصيب قارئه بأعراض العطش كي يعود إليه مرة واثنتين طلباً للري ، والمعرفة ، والتبصر . . ولكم تستبد الحيرةُ بالمرء وهو يواجهه . . فهو بسيط وعميق ، وواضح وغامض ، وقريب وبعيد ، يحتشد بالضوء والعتم ، والحضور والغياب ، والبدو والاحتجاب ، . . لكأن أسطره كائناتٌ مسّها الضوء فصارت هالات ومسارب حيناً ، ونوافذ ودروباً حيناً آخر . بقولة أخرىٰ لكأن الكتاب ، في اجتماعه ، هو بغية الباحث عن شفاءٍ من علل الكلام الضرير ، . . وهو ، كذلك ، شقيق المعرفة السامية التي تتوخىٰ تطويع أفكار الفلسفة الكبرىٰ ، وأحوال النفس وهواجسها من خلال توليد أسئلة كونية لا تخص المعرفة وحدها ، وإنما تخصّ الفرد باعتباره يد الأبدية التي تكتب مدونة الحضارة والعلوم . إنه كتاب ، في جانب من جوانبه ، يصل ما انقطع

من حوار معرفي بين الماضي التالد ، والراهن الطارف حول موضوعات مؤرقة ، في مقاربتها راحةٌ للنفس وتزكيةٌ ، وفي معاركتها خلاصٌ من أعراض المادية القبيحة ونزوات الذات التافهة ، وفي إدراك معانيها طمأنينةٌ مشتهاةٌ تهفو إليها الألباب كما تهفو الأطيار إلى السواقي .

ومن ينقب في الكتاب يجد أنه كتاب طبقات ، له بنية دائرية ، كل دائرة تفضي إلى دائرة أخرىٰ في متوالية عقلية مفتوحة الأمداء والتأويلات ، كل استباق فيها استرجاع ، وكل استرجاع فيها استباق ، وقد غُمرت بظلال اللغة ، وسطوة المعنى . .

- ٢ -

وبعد ،

فإنني أعد القارىء ، استهلالاً ، بمتعتين :

أولىٰ : عقليـة ، ستبحـرُ بـه إلـى كنـه الفلسفة ، ولجة الأفكار ، وطيب العرفانية ، ومجد الكلام .

والثانية : جمالية الموهبة وحضورها ، وصفاء المعنىٰ وقد اكتمل ، وروعة المبنىٰ وقد نهض ، وكثرة المغنىٰ وقد أخصب .

حسن حميد

استهلال

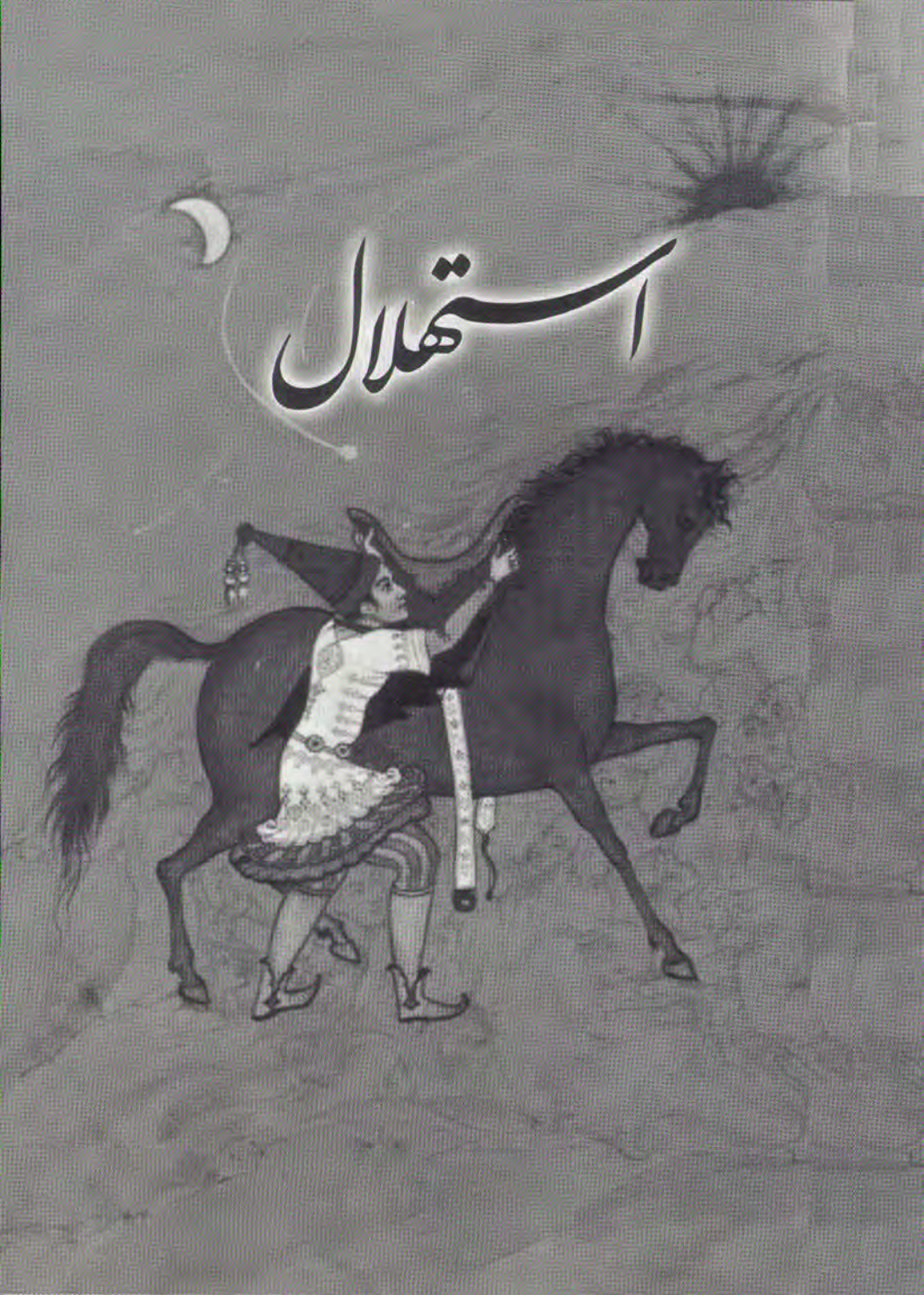

استهلال

سَألَ سائلٌ :

ومن يكونُ أبو الفرجِ هذا ؟! . .

أهوَ من مبتكراتِ حروفٍ؟! أم من لحمٍ ودمٍ؟!

إنهُ عبدٌ من عبادِ الله ، عاشَ في باديةِ السماوةِ ، في الربع الأخير من القرن الهجري الأول ، أُوتي علماً من الكتابِ فهو يركبُ موجاتِ الضوءِ متنقلاً بين الأزمنةِ والأمكنةِ قبلَ أن يرتدَّ إليكَ طرفُكَ ، فإذا حدثكَ عن

شخوصٍ عرّاهمْ توافقُ شخوصاً حقيقيينَ في واقعكَ ، فهذه ليست مصادفةً ، ولكنه ربّما أَزَرَهُمْ بغلالةٍ شفيفةٍ كالتي تُسْدلُ على نافذةٍ تدخلُ منها الشمسُ ، فإنها تجعلكَ لا ترى الشمسَ ، ولكنها لا تحجبها إلا بقدرِ ما حُجِبَتْ هذه الشخوصُ .

ونصيحتي :

إذا وجدتَ في نفسكَ شبهاً بإحدى هذه الشخصياتِ ، أن تدعُوَ اللهَ أنْ يُمَكِّنَكَ من ركوبِ موجةِ ضوءٍ ، تهربُ على متنها من زمانكِ ومكانكِ (بحسب نظرية النسبيةِ لأنشتاين) ! . . أما إذا كنتَ من الذين رضي الله عنهم ، (وتعرف نفسكَ من خطوكَ على دربِ أئمةٍ في الخيرِ سبقوكَ) ، فاركَبْ متونَ الموجاتِ التي يمتطيها أبو الفرج ، تر العجب ! . .

الكتاب

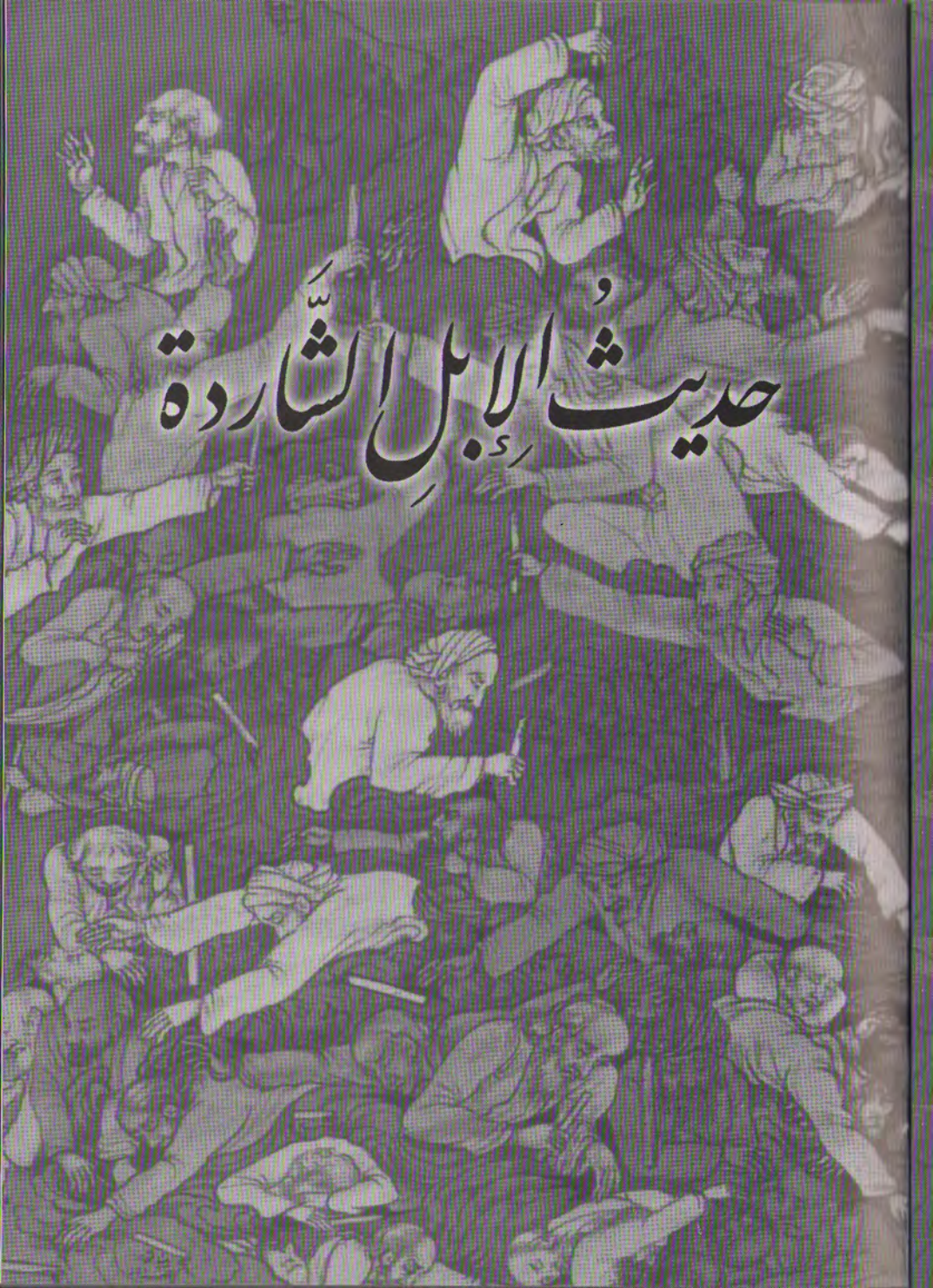
حديث الإبلِ الشَّاردة

حديث الإبل الشاردة

حدثنا أبو عُمرَ الكاتبُ قال :

عادَ أبو الفرجِ بعدَ خمسةِ أعوامٍ ، فقلتُ : أينَ كنتَ يا أبا الفرجِ خمسةَ الأعوامِ هذه ؟! . .

قالَ :

بلْ هيَ خمسُ سنينَ ،

زَرَعْنا فيها دَأَباً ،

فما حَصَدْنا غيرَ الريحِ . .

قلتُ :

هَلاّ أوضَحْتَ . .

قالَ :

منذُ ماتَ أبو أَحمدَ شَرَدَتِ العِيْرُ ، في وادٍ ما تَبَيَّنا اسمَهُ من شدةِ العَتَمَةِ . .

ربما كان اسمُهُ « وادي الهوى » . . لكنَّ أمَّ أحمدَ أصرتْ تقولُ : « إِنَّهُ وادي الهواءِ » ، ولا أَحَدَ يستَطيعُ العيشَ من دونِ هواءٍ ! . .

وقدْ كانتْ دَرَسَتْ علمَ التأويلِ ، وأعانها فتى ذو لحيةٍ ، أحبَّ التأويلَ دونَ أن يَدْرُسَهُ . .

فأكلتِ العَتَمَةُ ثلاثَ نوقٍ . . .

بَحَثْنا عنهُنَّ طويلاً فما اهْتَدَينا . .

فَرَحَلْتُ عَبْرَ الزمانِ أبحثُ عنهنَّ . .

فأخبرني امرؤُ القيسِ أنَّهُ خلالَ بحثهِ عن مُلْكِهِ الضائعِ وجدَ إِحداهنَّ في وادي الصمتِ ! . .

ووجدَ الثانيةَ تُحاربُ مع سيفِ بن ذي يـزنَ . . وأخبـرهُ أحـدٌ مـا أنـه رأى الثالثةَ في وادي التحَسُّبِ . .

قال أبو عمرَ الكاتبُ :

قلتُ :

وما وادي التحَسُّبِ يا أبا الفرجِ ؟! .

فنظرَ إليَّ نِظرةَ المندهشِ ممّا سألتُ ، وذهبَ وهو يقولُ :

ما عهدتُ علمكَ انكمشَ ! . .

وغيَّبَهُ الطريقُ . .

قال أبو عمرَ الكاتبُ :

قلتُ لنفسي :

ما الذي أَسْخَطَهُ ؟! .

ثم وَاسَيْتُها :

واللهِ لأَسألَنَّهُ ولو بعدَ حينٍ .

حدیث التحسب

حديث التحسّب

حدثنا أبو عمرَ الكاتبُ قالَ :

كانَ الليلُ ما زالَ طفلاً ، ولمحتُ أبا الفرجِ يَغُذُّ السيرَ في طريقِ الدهشةِ المفضي إلى دارِ ندوةِ الربعِ ، فصرختُ وأنا أَتبَعُهُ :

يا أبا الفرجِ أمهلْني حتى أَلْحَقَ بكَ ، قالَ وظلَّ يَغُذُّ السيرَ :

الْحَقْ . . وَتَحَدَّثْ

قلتُ وَلَهَثْتُ وراءَهُ : ما هذا الاسمهُ وادي التحَسُّبِ ؟! . أله بالآيةِ الكريمةِ :

﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾

صلةٌ ما ؟! . .

هنالكَ وقفَ ، واستدارَ ، وقالَ :

بَدَأْتَ تُدْرِكُ . .

أردتُ أنْ أقولَ ، ولكنّه اختفىٰ وقالَ :

حينَ أراكَ الثانيةَ أُحَدِّثْكَ عنهُ .

قال أبو عمرَ الكاتبُ : قلتُ لنفسي :

كيفَ لهُ أنْ يقرأَ أفكاري ؟! .

حدیث خلا

و وادی المحتسب

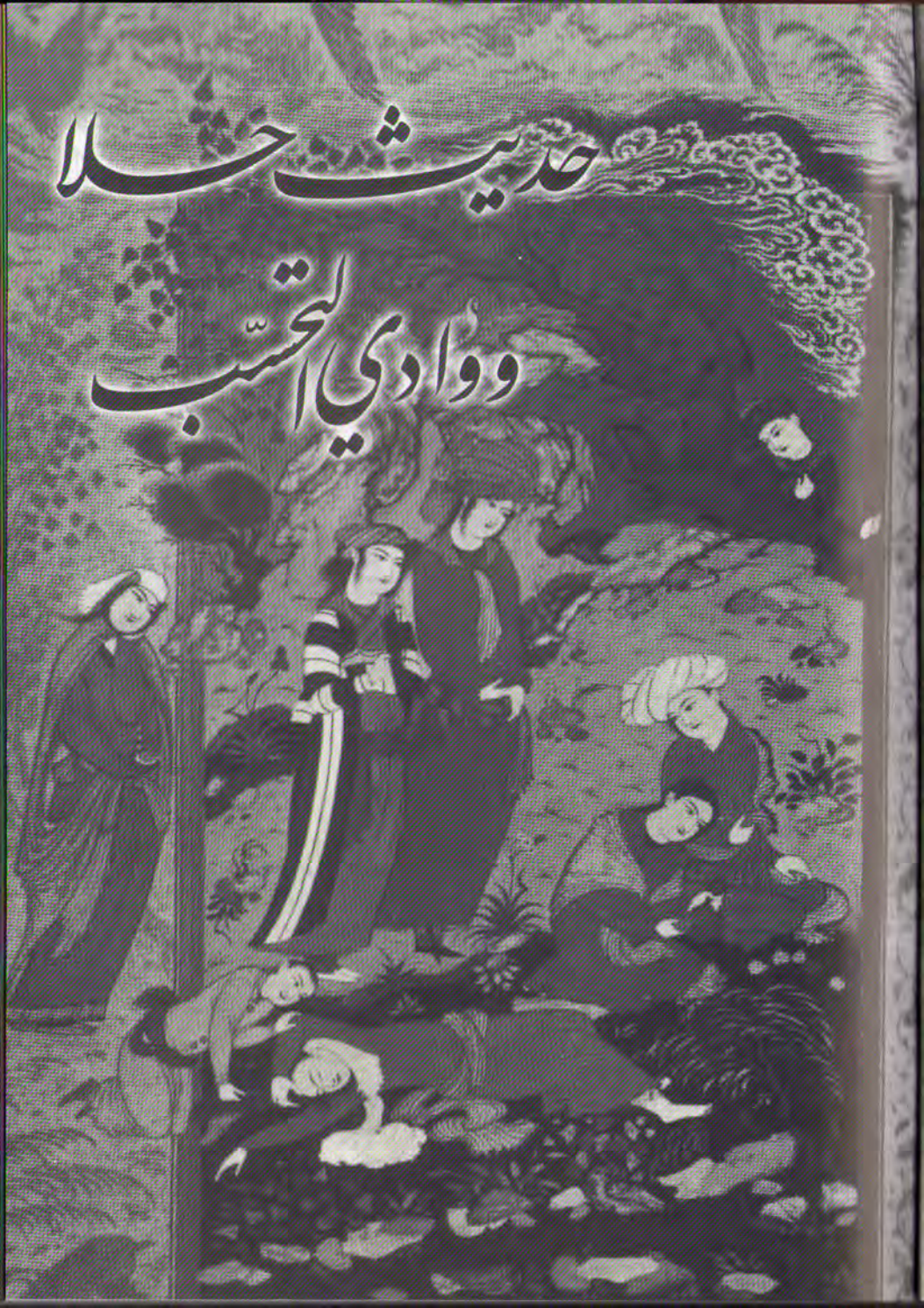

حديث حلا ووادي المحسّب

حدثنا أبو عمرَ الكاتبُ قالَ :

في الأسابيعِ التاليةِ ظَلَلْتُ أطلبُ أبا الفرج فَلَمْ أَجِدْهُ . .

في اليومِ الأولِ من الأسبوعِ الأولِ سألتُ الريحَ والمطرَ فما وجدتُ لديهِما جواباً .

في اليومِ الثاني من الأسبوعِ الثالثِ

سألتُ الأنواءَ فَصَمَتَتْ .

وفي اليومِ الرابعِ من الأسبوعِ الخامسِ سألتُ القمرَ وكانَ هلالاً عن أبي الفرجِ فَهَمَسَ في رُوْعي :

إذا صرتُ بدراً تراه في منتصف الليلِ ، يجلسُ على تَلَّةِ التَّحَنُّثِ ، يُحَدِّقُ في وادي التحَسُّبِ . .

قال أبو عمرَ الكاتبُ : وقدْ كانْ . .

فلما صارَ القمرُ بدراً يَمَّمْتُ شطرَ تَلَّةِ التَّحَنُّثِ ؛ فوجدتُ أبا الفرجِ يَتَّكِىءُ على عصاهُ وهو جالسٌ يرسلُ نظرهُ إلى أعماقِ الوادي . .

فقلتُ :

يا أبا الفرجِ . . هلاّ حدثتني عنْ هذا الوادي ؟! . .

التَفَتَ يَسْرَةً ونظرَ إليَّ من أَعلى كَتِفِهِ وقالَ :

عندما ضاعَتْ « حَلاَ » ، وجدناها هُنا . . .

قال أبو عمرَ الكاتبُ :

فَتَهَيَّبْتُ أن أسألَ : ومن تكونُ « حَلاَ » ؟! . . فَصَمَتُّ ، لكنَّهُ نظرَ إليّ نِظرةَ عطفٍ ، وابتسمَ خفيفاً حينَ قالَ مُنْشِداً بصوتٍ حزينٍ شفيفٍ :

قُلْتُ : غُرَابٌ هُوَ
قالتْ زَوْجَتي : بَلْ قُبَّرَهْ .
حَطَّ في باحَةِ بَيْتِنا
فَإِذا الباحَةُ مَقْبَرَهْ

ثم تابع بصوتٍ خفيضٍ كمنْ يَشْرَبُهُ الأَسى :

وَقَالَتْ حَلاَ :
هُوَ البِلَىٰ

قالتْ ذلكَ وَغَيَّبَتْها الظُّلْمَةُ . . .

. . .

قالَ أبو عمرَ الكاتبُ :

ثمَّ صَمَتَ ، ثم قامَ وتركَ التلَّةَ ومنْ دونِ أنْ ينظرَ إليَّ قالَ :

حَدَّثَتْكَ نَفْسُكَ مَنْ « حَلاَ » ؟! . .

قلتُ : نعمْ .

قالَ وذهبَ :

إنَّها بِضْعَةٌ مني

حديث حلا ـ وخامد السيّئ

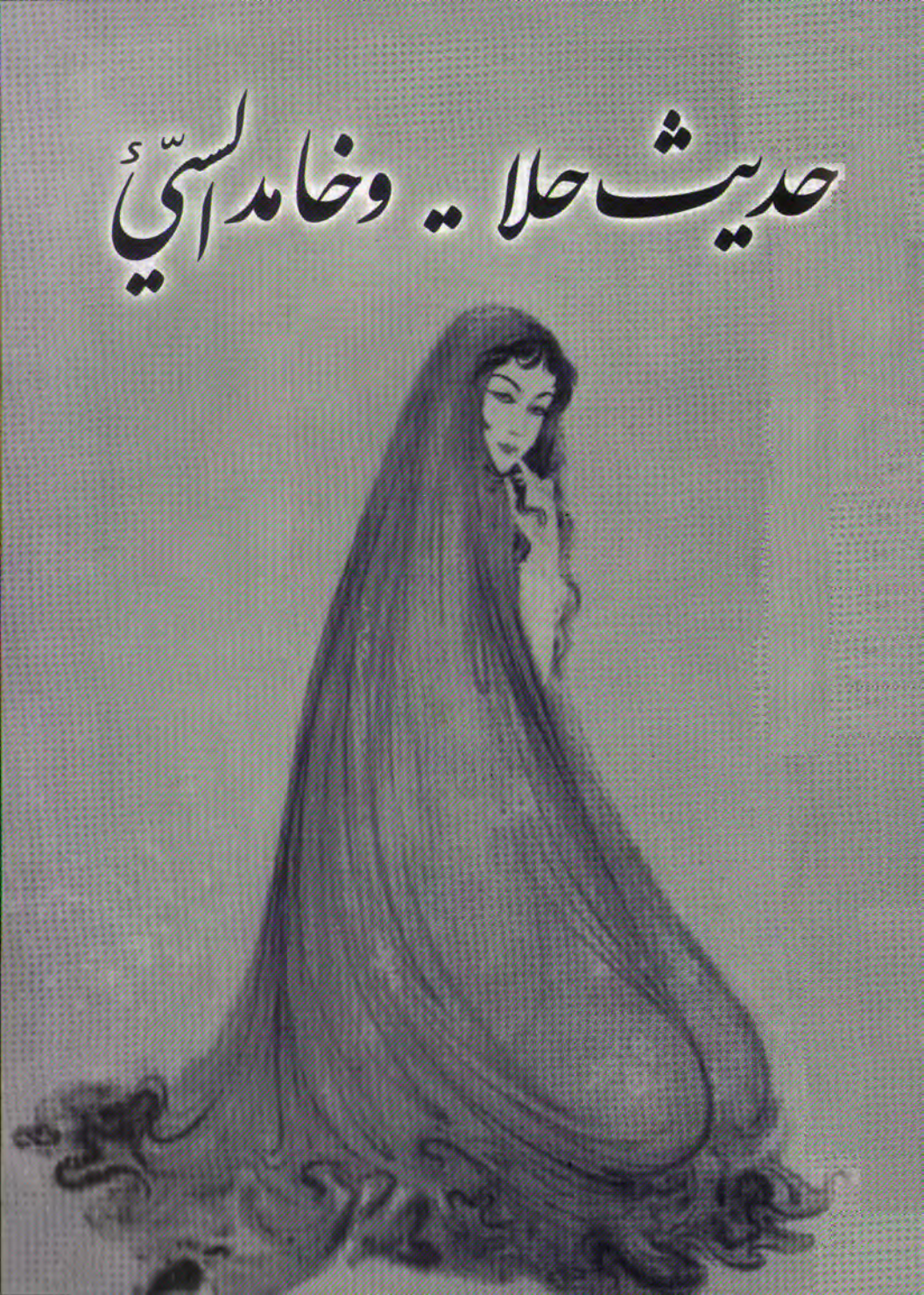

حديث «حلا وخامد السيّء»

حدَّثنا أبو عمرَ الكاتبُ قالَ :

بحثتُ خلالَ الأيامِ التي تَلَتْ عن أبي الفرجِ فلمْ أَعْثُرْ عليهِ ، ولمّا رأىٰ أهلُ الربعِ لَهْفَتي للقياهُ قالوا :

عليكَ « بتأَبَّطَ خَيْراً » راويةِ أشعارِ أبي الفرجِ يحدِّثكَ عن « حلا » . .

فلمّا كانَ يومُ الإثنينِ رأيتُهُ يدخلُ

المسجـدَ عنـدَ صـلاةِ الظهـرِ ، فلمـا قُضِيَتْ ، قلتُ :

ناشَدتُكَ اللهَ يَا « تَأَبَّطَ خَيْراً » أن ترويَ لي قصةَ « حَلاَ » ؟! . . .

قالَ :

أَفْعَلُ إن شاء الله ، ولكنْ يومَ الخميسِ في نادي سَمَرِنا ، فالْقَنِي هناكَ . . .

فلمّا كانَ يومُ الخميسِ ، دخلتُ دارَ ندوةِ السمرِ ، فرأيتُ « تَأَبَّطَ خيراً » يجلسُ وسطَ القومِ يحدثُهُمْ ، فَلَمَّا رآني قالَ :

يا قومُ ، لقدْ وعدتُ أبا عمرَ الكاتبَ أن أحدِّثَهُ عنْ « حَلاَ » ابنةِ أبي الفرجِ ، ثمّ أَجْلَسَني قُبَالَتَهُ وقالَ :

يا أبا عمرَ ، ما قولُكَ ببنفسجةٍ أرادَ خامِدُ السَّيِّءُ أنْ يشمَّ ضَوْعَها فلم يُدْنِ أنفَهُ منها بلْ حاولَ أن يَقْطُفَها ؟! . .

قالَ أبو عمرُ الكاتبُ فقلتُ :

ومنْ هو خامِدُ السيِّءُ هذا ؟! .

قال « تَأَبَّطَ خَيْراً » :

هوَ نكرةٌ بينَ الرجالِ . .

ظَنَّ نفسَهُ على شيءٍ . .

لأنَّ له أماً أدخلت ذلك في رُوْعِهِ . .

وكانت رُزِقَتْ شيئاً من بلادةٍ . .

وله أبٌ مغلوبٌ على أمرِهِ . .

وأختٌ شتَّامَةٌ لعَّانَةٌ . .

تَسَلَّلَ في غفلةٍ من الزمنِ أَوْ أَهلِهِ ،

وحينَ حاولَ قطفَ البنفسجةِ حصلَ

على ثلاثِ وريقاتٍ منها ما لَبِثْنَ أنْ ذَبُلْنَ في الغدِ . .

قالَ أبو عمرُ الكاتبُ فقلتُ :

زِدني .

قال « تَأَبَّطَ خَيْراً » :

اسمعْ . . سأُنْشِدُكَ أبياتاً قالها أبو الفرجِ يصفُ ابنَتَهُ « حَلاَ » .

قلتُ : فَدَتْكَ رُوحي .

اعتدلَ وقالَ :

هَلَّتْ حَلا قَمَراً ، فالضَّوْءُ مُنْسَكِبُ
والشَّارِبانِ سَنَاً المَجْدُ والطِّيَبُ

لَأَلْاؤُهَا مِنْ مِدَادِ الشَّمْسِ مُعْتَصَرٌ
وَتَزْدَهي أَلَقاً ، والشَّمسُ تُحْتَجَبُ

اثْنانِ قَدْ شَهِدَا : صَوْمٌ بِهَاجِرَةٍ
والليلُ يَقْظانُ للسَّجْداتِ يَحْتَسِبُ

أَلشَّاهدانِ تَعَالَتْ فيهما رُتَباً
لَوْلاهُمَا لَمْ يَكُنْ سَبْقٌ ولا رُتَبُ

لِلْمَكْرُمَاتِ سَمَتْ والمُصطَفَىٰ نَسَبٌ
طوبىٰ لِبِنْتٍ لها با لمُصْطَفَىٰ نَسَبُ

أختُ التُّقَىٰ . عِفَّةٌ قدْ زانَها أَدَبٌ
وما أُحَيْلَىٰ عَفافاً زانَهُ أَدَبُ

صاغَ الإلهُ سَنَا أَجدادِهَا عَجَباً
فبالزَّمانِ سَمَا أَجْدَادُها النُّجُبُ

من مَوْئِلِ المِسْكِ والأَزْهارِ فوحُ شَذىً
وَمِنْ مَنَاجِمِ تِبْرٍ يَخْرُجُ الذَّهَبُ

الوالهانِ : فُؤادي ، والقَصِيْدُ ، علَىٰ
وَقْعِ المُنى رَقَصَا ، والرقصُ قَدْ يَجِبُ

دَلٌّ وتـاهَـتْ بـه ، وازْدانَ مِـنْ خَفَـرٍ
فـاسَّـاقَطَـتْ أنجـمٌ زهـراءُ . . والشُّهُـبُ

لَهَـا لِسَـاكِنَـةِ الأَضْـلاعِ ألـفُ هَـلاَ
هيَ الرُؤى . . والمُنى . . والنَبْضُ والعَصَبُ

طـارَتْ حَمَـائِـمُ رُوحـي خَلْـفَ خَطْـوَتِهـا
إذْ غـادَرَتْ ، وفُـؤادِي نَبْضُـهُ خَبَـبُ

وإذْ قالَ ذلكَ دَمعتْ عيناهُ ، فقلتُ
ما لكَ يا « تَأَبَّطَ خيراً » ؟! . .
قالَ :
لو تدري كمْ غارَ جرحُ أبي الفرجِ
حتى قالَ شِعراً في هذا « الخامِدِ السيِّءِ »

قلتُ :

نَاشَدْتُّكَ اللهَ إلا أَنْشَدْتنِيهِ .

قامَ وقالَ :

حانَ وقتُ صلاةِ القيامِ . .

فإن كانَ الخميسُ القادمُ أَسْمَعْتُكَ إن شاءَ اللهُ . .

ومَضىٰ . . .

قالَ أبو عمرَ الكاتبُ :

للهِ دَرُّ أبي الفرجِ . .

حتى راوِيَتُهُ إذا مضىٰ . . مضىٰ كالحُلُمِ الواعدِ .

حدیث ناکرا الجمیل

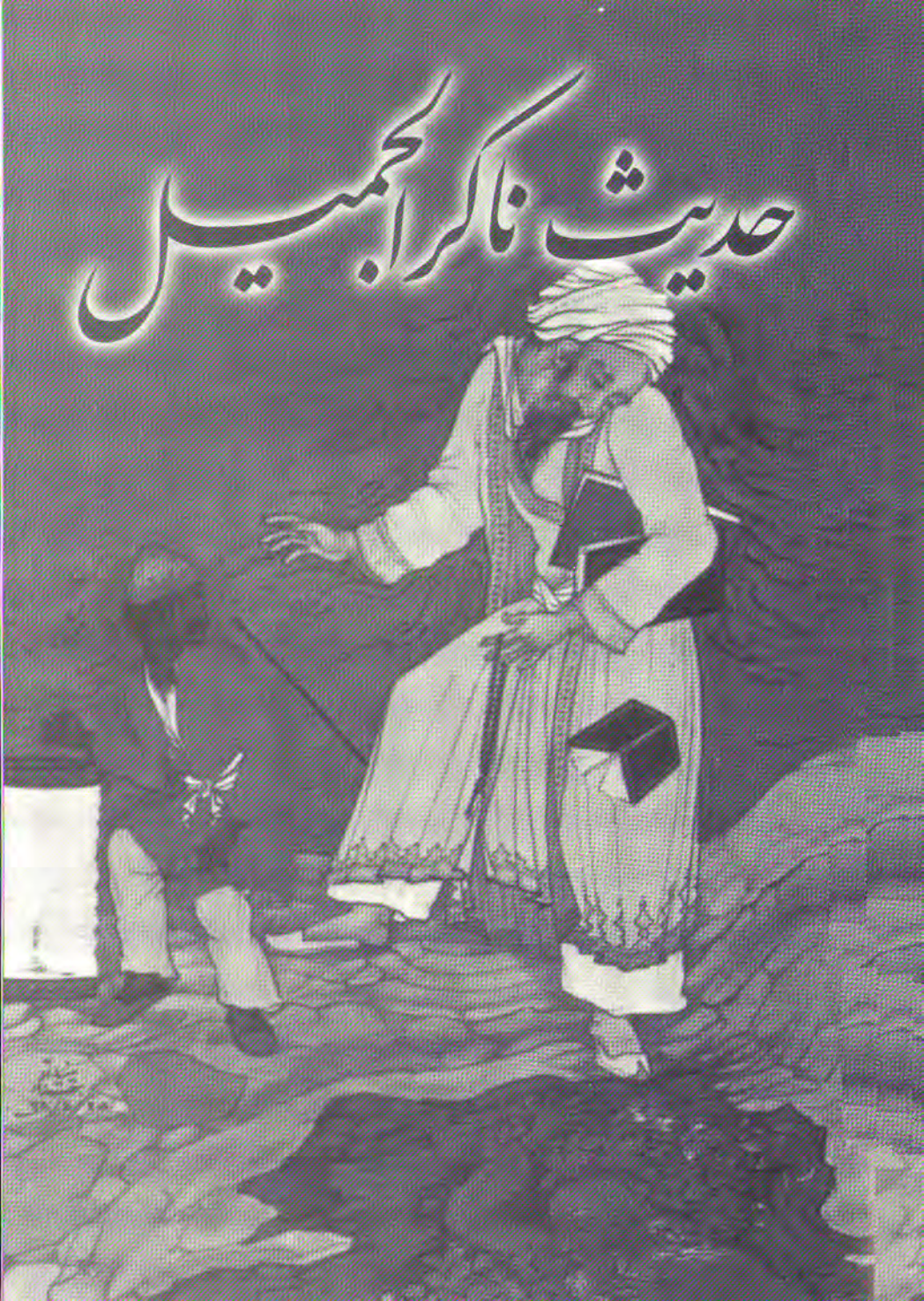

حديث ناكر الجميل

حدثنا أبو عمرَ الكاتبُ قالَ :

لما كانَ الخميسُ التالي ، ذهبتُ إلى دارِ الندوةِ فلمْ أجدْ « تَأَبَّطَ خَيراً » ، فسألتُ عنهُ فأخبروني أنّهُ تَرَكَ لي قِرْطاساً ، حينَ فَتَحْتُهُ وجدتُ فيه :

دَعتْني حَوائِجُ إلى الرحيلِ ، ووفاءً

بالعهدِ الكانَ مسؤولا أَتْرُكُ لكَ الأشعارَ التي نَظَمَها أبو الفرجِ في وصفِ ناكرِ الجميلِ المسمى « خامِدَ السيِّءَ » في الرقعةِ المرفقةِ مع هذا القِرطاسِ .

فَتَحْتُ الرقعَةَ فإذا فيها :

لا طَيِّباً نَفْساً ولا جَسَدَا
الكلبُ أَوْفىٰ خافِقاً وَيَدَا

يـا أَسْـوَدٌ فِكْـراً وفـي خُلُـقٍ
طَبْعُ العَبيدِ الـ« مِنْكَ » ما شَرَدَا

نامَتْ عُيونُ الرَّبْعِ عَنْ قَذَرٍ
كجيفَـةٍ بـالمـاءِ قَـدْ رَكَـدَا

يـا رَبْـعُ هَـذا كـاذِبٌ أَشِـرٌ
لا يَبْتَغـي صِـدْقَـاً وَلا رَشَـدَا

أُسُّ التفـاهـاتِ التـي عُـرِفَـتْ
لَـمْ نُحْصِهَـا عَـدَّاً وَلاَ عَـدَدَا

بُعْـــــدًا لأُمٍ أَنجبـــــتْ وَرَعَـــــتْ
ووالـــدٍ . . يـــاليـــتَ مـــا وَلَـــدا

وَدَعْـــــوَةٌ أُخْـــــرىٰ لِقَـــابِلَـــةٍ
وَدَعْـــــوَةٌ أَدْهَـــىٰ لِمَـــنْ وُلِـــدَا

فما أنْ انتَهَيْتُ من قِرَاءَتها حتى التَفَتُّ إلى منْ كان بجانبي قائلاً :

كَأَنِّي بهذهِ الأبياتِ قَدْ قيلَتْ في « خاسِرِ الوَبائي » فهي تَصْدُقُ في خُلُقِهِ الغَدَّارِ وصورَتِهِ اللئيمةِ ؟! . .

فقالَ :

يا أبا عمرَ أنتَ قَدِمْتَ إلى الرَّبْعِ بعدَ صِفِّينَ بزمنٍ صَقَلَتْ تجارُبُهُ أبا الفرجِ

فصارَ إذا قالَ قولاً في ناكرٍ للجميلِ ، صَلُحَ لكلِّ زَمانٍ ، وأيِّ مكانٍ يكونُ فيه ناكرٌ للجميلِ ، فلا يَهُمُّ فيمنْ قيلتْ . . .

قالَ أبو عمرَ الكاتبُ :

فَعَجِبْتُ من أبي الفرجِ كيفَ يصوغُ الحكمةَ ، وغادرتُ دارَ ندوةِ السَمَرِ وأنا أرددُ قوله تعالى :

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

حدیث درب التوجّع

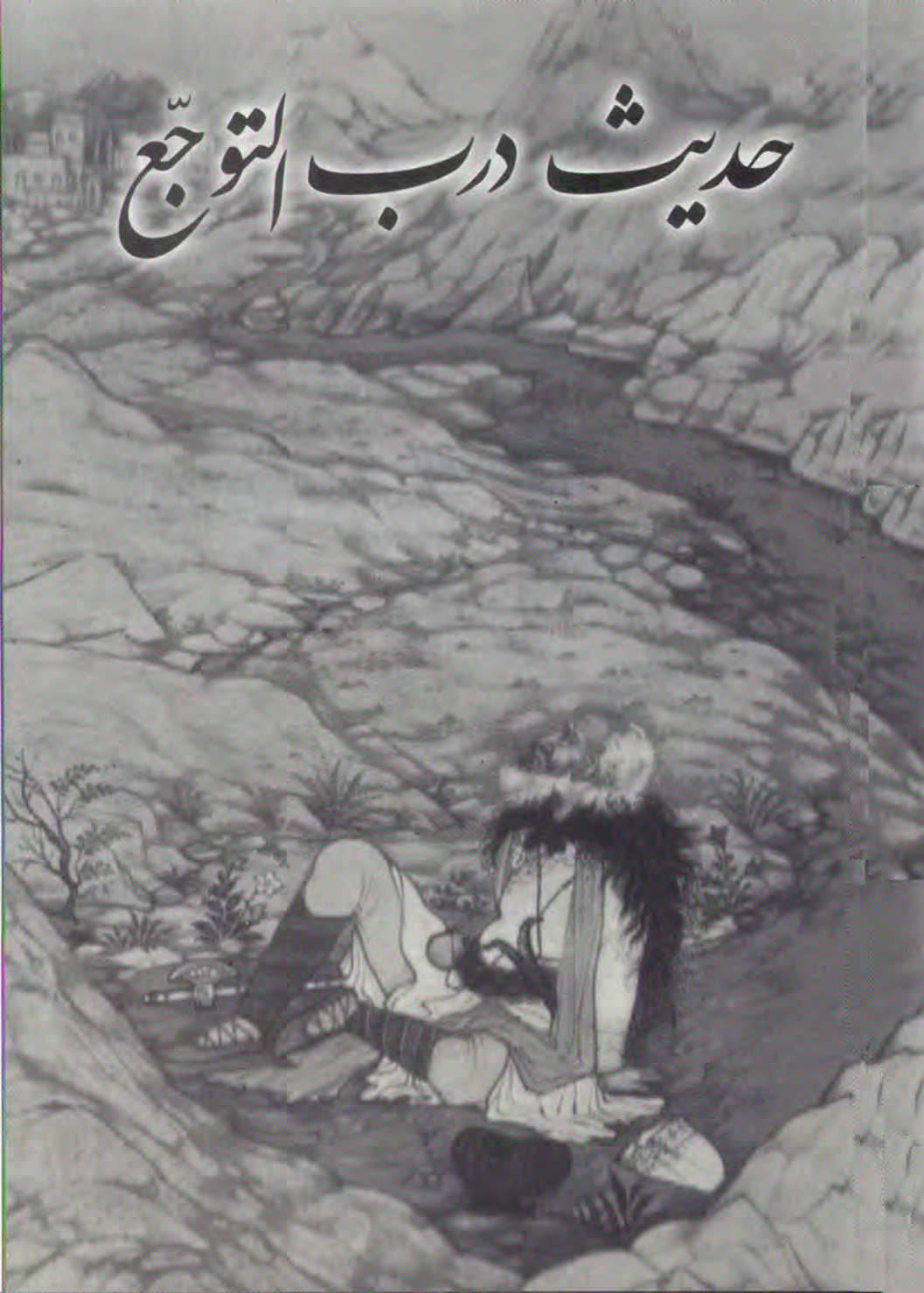

حديث درب التوجع

حدثنا أبو عمرَ الكاتبُ قالَ :

لَقِيْتُ « تَأَبَّطَ خَيْراً » بعدَ ثلاثةِ بدورٍ على دربِ التَّوَجُعِ المُمْتَدِّ منْ دارِ ندوةِ السمرِ إلى وادي التحسبِ فقلتُ :

يا « تأبَّطَ خيراً » ألا تُحَدِّثُني عن « خامِدِ السيِّءِ » هذا ؟! . .

فأَخَذَ بيدي وقالَ :

يا أبا عمرَ ماذا أقولُ فيه ؟! . .

نظرَ إلى أبيهِ يَمْلِكُ شُوْيهاتٍ يَرْعاها . . .

ونظرَ إلى أبيها يرعى القوافي ،

لاَ يَتَكَسَّبُ بها ، بل وَشْيُ جمالٍ ،

ورَهَافَةُ حِسٍّ . . .

نظرَ إلى أمّهِ ظَلَمَتْ أن مَلَّكَها اللهُ بعضَ أمرٍ . .

ونظرَ إلى أمِّها ، كلما اتسعَتِ الدنيا بيْن يَدَيها تَمَسْكَنَتْ . . .

نظرَ إلى أخيهِ نَكِرَةً في الربعِ . . .

ونظرَ إلى أخوتِها يَمْلَؤُهم بَرْدُ اليقينِ ،

فرسانُ نهارٍ ، رهبانُ ليلٍ . .

نظرَ إلى أختِهِ ، شتّامةً ، يسوقُها غَيْظُها . .

ونَظَرَ إلى أُخْتِها ، نَجْمَةً ، لَمَّاعَةً ،
أختَ ثُريّا . . .
نظرَ إلى مَنْبِتِه ! . .
ونظر إلى جدِّها « الحسين »
فَتَضاءَلَ أمامَ ظِلِّها . . .
وكانَ يَحْسَبُ أنَّهُ على شيءٍ . .
فَوَجَدَ نفسَهُ صِنْوَ صِفْرٍ . .
تَمْلَؤُهُ عُقَدٌ لا حَلَّ لها . . فَشَعَرَ بالدونيَّةِ ،
وحينَ أرادَ أَن يَتَطاوَلَ قَصَّرَ بِهِ سُلَّمُهُ . .

وصَمَتَ ، وَوَقَفَ ، ونظرَ إليَّ وقالَ :
هَلْ رأيتَ « حَلاَ »
قلتُ : لا .

قال :

إذا نَظَرْتَ إليها حَسِبْتَهَا صُنِعَتْ من خيالِ شاعرٍ أحبَّ ، فذابَ من الهوى ! . . مُنَمْنَمَةُ تقاطيعِ الوجهِ ، يَلُفُّهُ فَرْعٌ كالدُّجى ، ابْتَدَعَها خالِقُها على غيرِ نَسَقٍ ، ثمّ ألقى عليها غبارَ براءَةٍ وَنَفَخَ ، فَتَلألأَ وَجْهُهَا بذاكَ الإشعاعِ الطفوليِّ الذي لا يراهُ إلا مَنْ صَفَتْ نفسُهُ ، وأَخْبَتَ إلى ربِّه . . غَسَلَ جوفَها بالنورِ فما عادَ يملَؤُهُ سوى بردِ اليقينِ ؛ فَأَسْرَتْ إلى بيتِهِ حاجَّةً لتعودَ ساريةَ كلِّ ليلٍ إلى ملكوتٍ لا يعرفُهُ سواها . . . قَوَّامَةُ ليلٍ ، صَوَّامَةُ هَواجِرَ . .

وجاءَ هذا « الخامِدُ السيءُ » فما قَدَرَهَا حَقَّ قَدْرِها . .

قالتْ له :

إليكَ عَنّي ! . .

قالَ :

فَلْتَفْتَدي مِنّي . .

قالتْ :

لعنةُ الله على الظالمين ، أَتَمُنُّ عليَّ أن أعطيَ الخادِمَ من حُرِّ مالي ؟! . . أمْ تَمُنُّ عليَّ أنْ أذهبَ إلى دارَةِ أهلي على راحِلَةٍ أَسْتَأجِرُها من مالِ أبي ؟

فَأَصَابَهُ الخَرَسُ . . .

قالتْ :

أتريدُ مني أَنْ أتنازَلَ لكَ عن صَدَاقٍ

ما أَعْطَيتِنيهِ بالأَصْلِ ؟! . .
قالَ : هوَ ذاكَ
قالتْ :
لكَ ما لَمْ تُعْطِ ، وَلَمْ آخُذْ . .
وَذَهَبَتْ ،

فانكمشَ على نفسهِ كَجُرَذٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ لنْ يَتَعَدَّىٰ قَدَرَ الجُرَذِ . . .
وعلمَ أنّه في غفلةٍ من الزمنِ ـ وأستغفرُ اللهَ ـ بل في غفلةٍ من أهلِ الزمنِ تَمَسَّحَ بأذيالِ أميرةٍ حقُّهَا أنْ يكونَ بيتُها بينَ النجومِ ، ولو شاءَ لارتفعَ معَها إلى السكنى بينَ المَجَرَّاتِ ، ولكنه أَخْلَدَ إلى الأرضِ . . والأرضُ مِنْ طين . .

وهنا وصلنا إلى وادي التحَسُّبِ ، فالتفتَ إلي « تَأَبَّطَ خيراً » وقالَ :

هل عرفتَ يا أبا عمرَ الآنَ كيفَ وجدَ أبو الفرجِ ابنتَهُ « حَلا » في وادي التحسُّبِ ؟! . .

ولم ينتظرْ جوابي بل مضى مثلما يمضي خَفْقُ الدمعِ تاركاً الروحَ في غِلالةٍ من أسىً شفيفٍ . .

حدیث التشظی

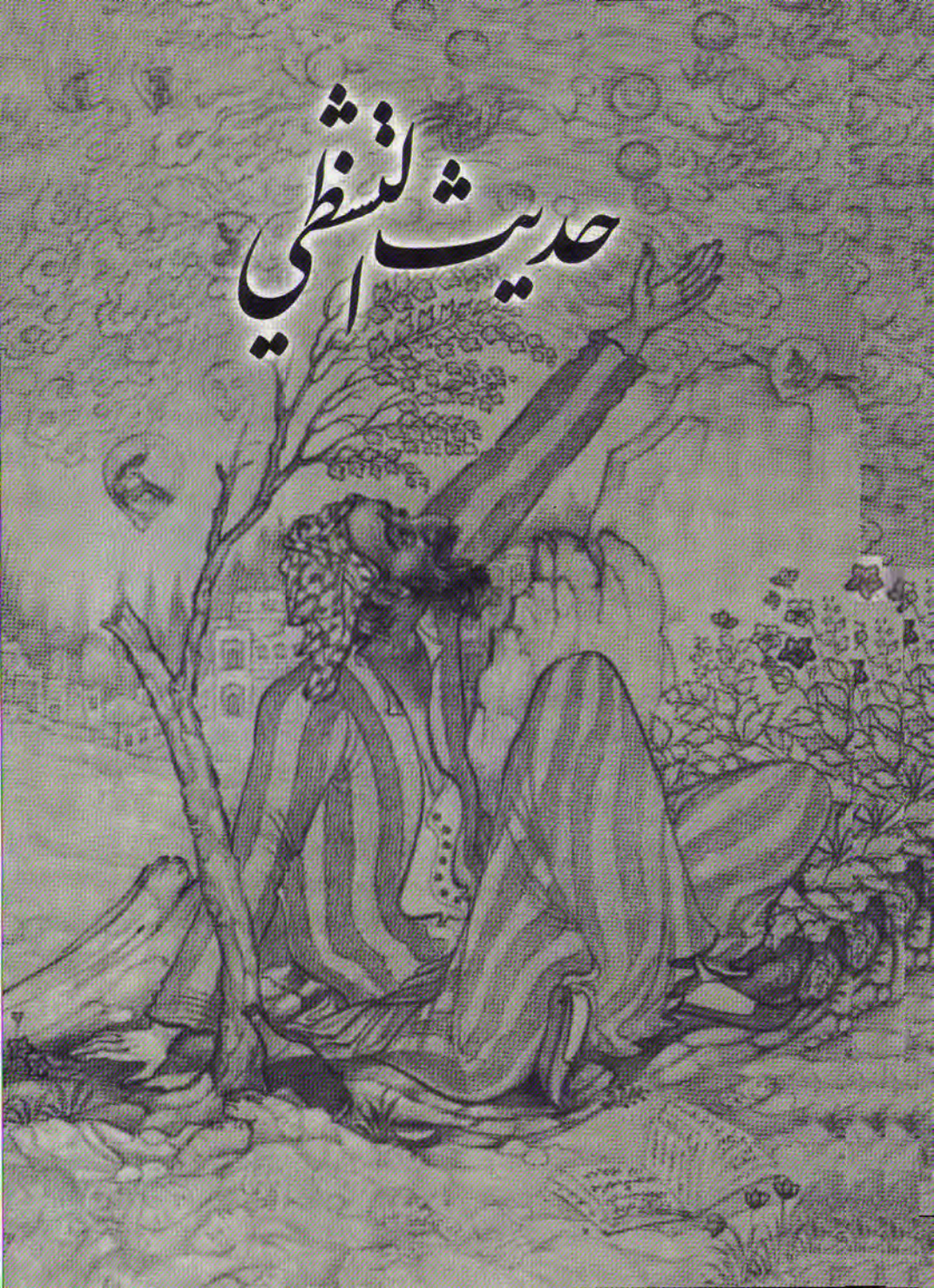

حديث التشاظي

حدَّثنا أبو سعيدٍ البَكَّاءُ ـ وسُمِّيَ بذلكَ لأَنَّهُ كانَ يجمعُ بُكائِيّاتِ المرهفينَ ليَحْتويها بينَ دفتينِ ـ قالَ :

التَمَسْتُ أبا الفرج ليالـيَ ذواتِ عددٍ ، لأسمعَ منهُ ، فما ظَفِرْتُ بمَطْلبي ، حتى إذا شَحَبَ القَمَرُ عثرتُ عليه يجلسُ على حافةِ الصمتِ المطلةِ

على سهلِ السكونِ ،

فقلتُ :

يا أَبا الفرجِ ، أَطلُبُكَ منذ عدَّةِ ليالٍ ولا أَجِدُكَ ! .

قالَ :

لعلكَ ما زلتَ تجمعُ بُكائياتِ القومِ ؟! .

قلتُ :

هوَ ذاكَ

قالَ :

لقدْ تَشَظَّتْ روحي كقطعةِ بلّلورٍ مُسَلَّحٍ سقطتْ من شاهقٍ على جلمودِ صخرٍ . .

قلتُ :

وما هو البلّلورُ المسلحُ يا أبا الفرجِ ؟! .

قالَ :

هوَ نوعٌ من الزجاجِ سيخترعونَهُ

في قابلِ الأيامِ يتشظى دونَ أنْ يتناثرَ ! .
كذلكَ روحي . .
فلقــدْ شظَّتْنــي « واحــةُ » ، وَحَسِبْتُنــي
الْتَأَمَتَ لأكتشفَ أنَّ « حلا » قَدْ شظتني
من جديدٍ ؛ فما أَجِدُ نفسي إلاّ والآلامُ
تتواتَرُ فيها تواتُرَ الصوتِ في الفضاءِ ،
فتملأُ حواسِّيَ كما يملأُ الليلُ الغابةَ . .

يا أبا سعيد . . .

أنــا منــذُ رحلــتُ فــي سنــواتِ النَــوْحِ
المديدةِ ، صارتْ أقطارُ نفسي كَمَرْجِ
أعشابٍ ، يَهبُّ عليها الحزنُ كالنسيمِ
فَتَتَماوجُ كمنْ يبكي بلا دموع . . .

وعندما يَهْبِطُ الليلُ ، والبَرْدُ يَلُفُّ العالَمَ ، أُفكرُ فيها فَأَشْعُرُ بوميضِ بسمَتِها الدافئةِ تسري في كِياني ، فَتَنْتَحِبُ روحي لذكراها انتحابَ ثكلى أخبروها للتوِّ بفجيعَتِها . . .

يا أبا سعيد . . .
تفيضُ دموعُ النفسِ فتغرقُ الروحُ فلا أملكُ إلا أَنْ أشرقَ بها . . .

قال أبو سعيد :
قالَ ذلك وصمتَ . . فلم أجرُؤْ على أنْ أقطعَ صمتَهُ القُدْسِيَّ ، فأطرقتُ إلى الأرضِ أفكرُ في تشظي الروحِ إذا

اغتَربَتْ . . وحين رَفَعْتُ رأسي لأنظرَ إليه لمْ أجدْهُ .

قال أبو سعيدٍ البَكَّاءُ :

رويتُ للشاعِرِ اللبنانيِّ « نجيب جمال الدين » ، كيف يَمُرُّ أبو الفرجِ ويغيبُ ، فقال :

كَذلِكَ بَيْتُ الشِّعْرِ . .
مَرَّ بخاطِرِي ،
وَغَابَ ،
وَلَمْ يَرجِعْ ،
أَمَوْعِدُهُ الحَشْرُ ؟ . .

حدیث عبدالحق

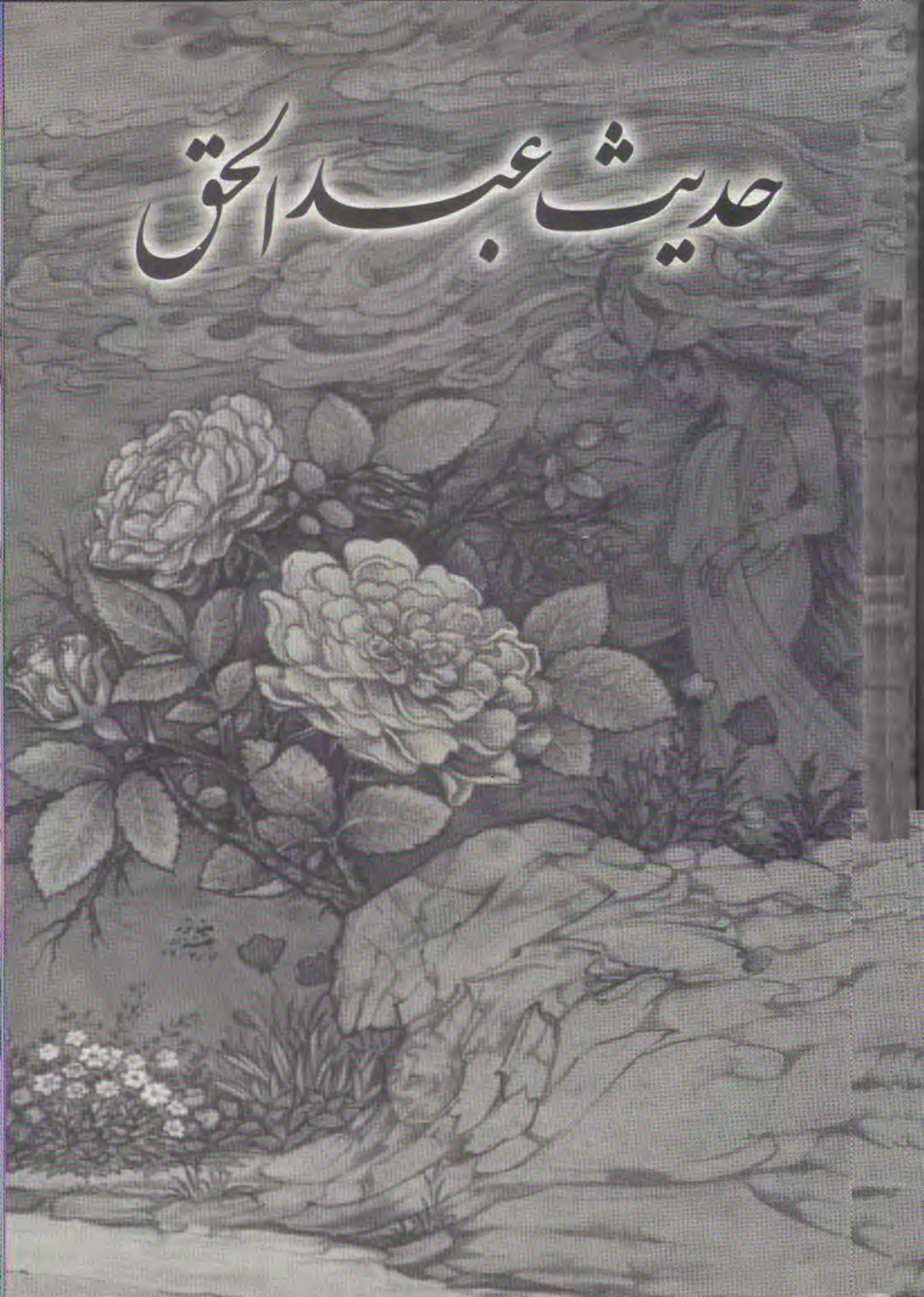

حديث عبد الحق

حدَّثنا عامرُ الهذليُّ قالَ :

أخبرنا « تأبَّطَ خَيْراً » أنَّهُ كانَ في الربعِ رجلٌ يدعى « عبدَ الحقِّ » ويكنى « بأبي وضاحٍ » . . وكان يَعْتَمِرُ في كلِّ رمضانٍ . . حتى ألَمَّ عليهِ المرضُ عامَنا هذا فأَقْعَدَهُ . . حتى إذا دَخَلَ رمضانُ تُوُفِيَ . .

قالَ « تَأَبَّطَ خيراً » :
وحينَ مَرَّتْ جنازَةُ « عبدِ الحقِ » من أمامِ أبي الفرج قالَ :

رحمَ اللهُ « أبا وضاحٍ » كانَ يرحلُ إلى بيتِ اللهِ كلَّ رمضانٍ ، فلما عجزَ رمضاننا هذا ، رحلَ إلى اللهِ . . .

يقولُ « تَأَبَّطَ خَيْراً » :
فما أدري واللهِ مِمَّنْ أعجبُ . . .
من أَبي وضاحٍ ، أمْ من أَبي الفرجِ ؟! . .

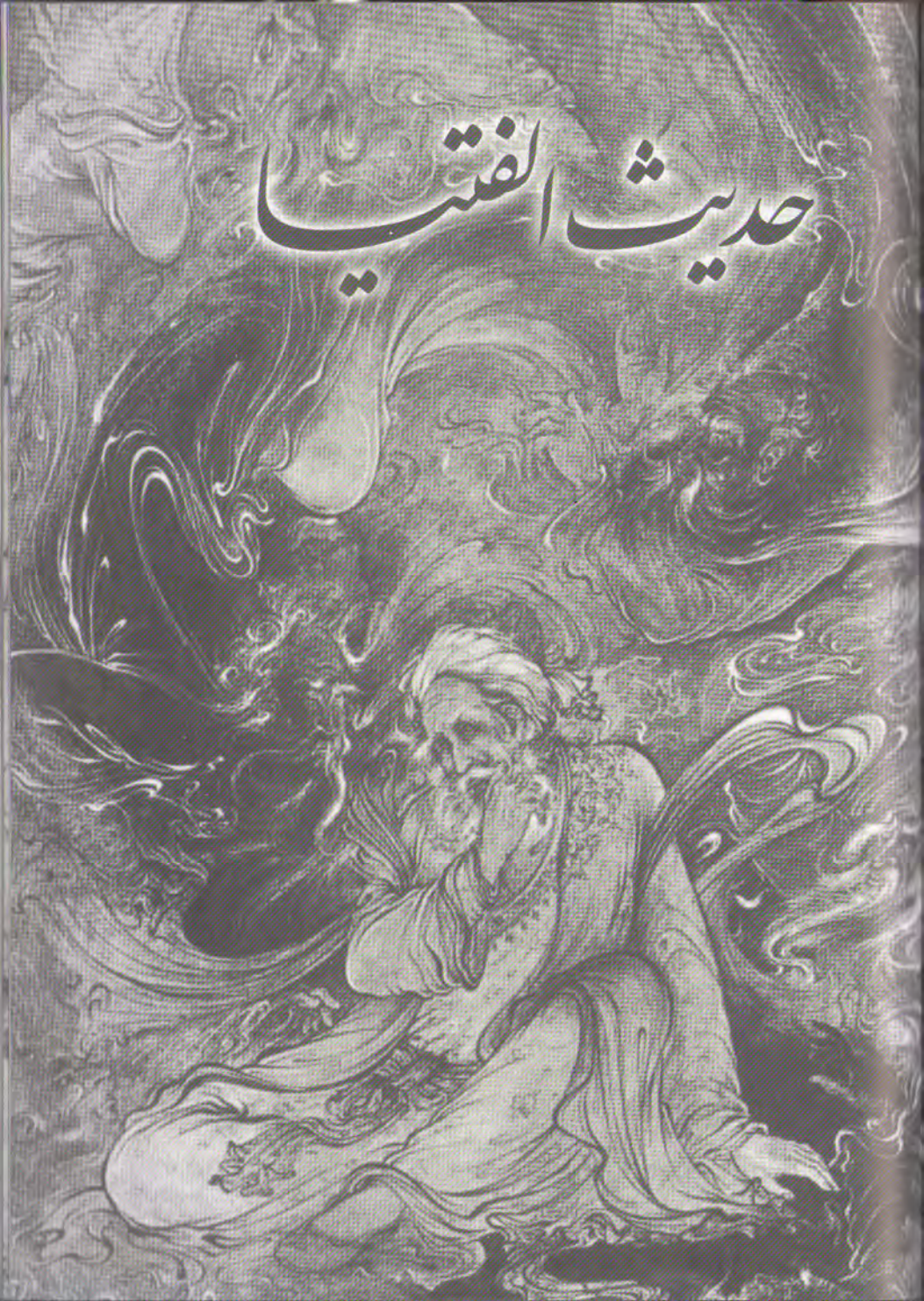
حدیث الفتیا

حديث الفتيا

حدَّثنا أبو أيوبَ المقرىءُ قالَ :

حَدَثَتْ جَفْوةٌ بين أبي الفرجِ وأقرباءَ لهُ بعدَ أنْ غَمَطَ فتيانهُم حقَّ فتياتِهِمْ مِنْ ميراثِ أبيهمْ بِعَونٍ منْ أُمِّهِمْ ، حتى ذَهَبَتْ عن الجميع سِنون . .

قالَ أبو أيوبُ :

حتى إذا اجتمعَ الفتى الأكبرُ بأبي الفرجِ

ذاتَ مصادفةٍ هتفَ : يا أبا الفرجِ لِمَ هذا الجفاءُ ؟! . .

قال أبو الفرج :

واللهِ لولا انسياقُ أمكَ وراء فُتْيا أخيكَ الموردةِ للتهلكةِ ما جافيناكمْ . . فهي غضبةٌ للحقِّ والحبِّ ، فَلكأني بكرامةِ أَخَوَاتِكَ مهدورةً حتى كأنهنَّ ما أنجبهنَّ والداكَ ! . . .

قالَ الفتى :

يا أبا الفرجِ . . أليسَ من حقِّ المرءِ أن يَهَبَ من مالِهِ ما يشاءُ لمنْ يشاءُ ؟! . . كذلكَ فعلَ أبي ، وصَدَّقَتْ فعلَتَهُ أُمي لأنَّ شيخَ أخي أفتى بذلكَ . . .

قالَ أبو الفرج :

رحمَ اللهُ أباكَ ، صَدَّقَهُ فوضعَ رجْلَهُ في شَرَكٍ تَغْرُزُ أمُّكَ رِجْلَها فيه الآن ظناً منها أنها تُقَدِّرُ أرزاقَ العبادِ ، وإنَّ مِنَ الأولادِ لفتنةً . .

أمْ لـمْ تسمعـوا إلـى النعمـانِ بـن بشيـر رضي الله عنه فيما رواه عنه مسلمُ في صحيحه قالَ :

« تصدَّقَ عليَّ أبي ببعضِ مالِهِ ، فقالتْ أمي عمرةُ بنتُ رواحة : لا أرضى حتى تُشْهدَ رسولَ اللهِ ﷺ فانطلقَ أبي إلى النبي ﷺ لِيُشْهِدَه على صَدَقَتي فقالَ له

رسـول الله ﷺ : أفعلـتَ هـذا بـوَلَـدِكَ كلهـم ؟. قـال : لا ، قـال : اتقـوا الله واعْدِلوا في أولادِكمْ ، فرجعَ أبي فَرَدَّ تلكَ الصدقة .

قال الفتى وتحشرجَ صوتُه :
فماذا نفعلُ يا أبا الفرجِ ؟! . .

قال أبو الفرجِ :
فِرِّوا إلى اللهِ إنْ أَغْنَتِ النُّذُرُ ! . .

قال الفتى :
كيفَ نفعلُ يا أبا الفرجِ ؟! .

قال أبو الفرجِ :

فلتكنْ مثلَ النعمانِ بنِ بشيرٍ ، ولتكنْ أمُّكَ مثل عمرةَ بنتِ رواحة . . . وإلاّ . . .

قال الفتى :

وإلاّ ماذا ؟! . .

قال أبو الفرجِ ومشى :

صَدَقَ الله العظيم القائلُ :

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

يقول أبو أيوبَ المقرىءُ :

فَوَجَمَ الفتى كأنَّهُ قُدَّ من حجرٍ .

حديث الرؤيا

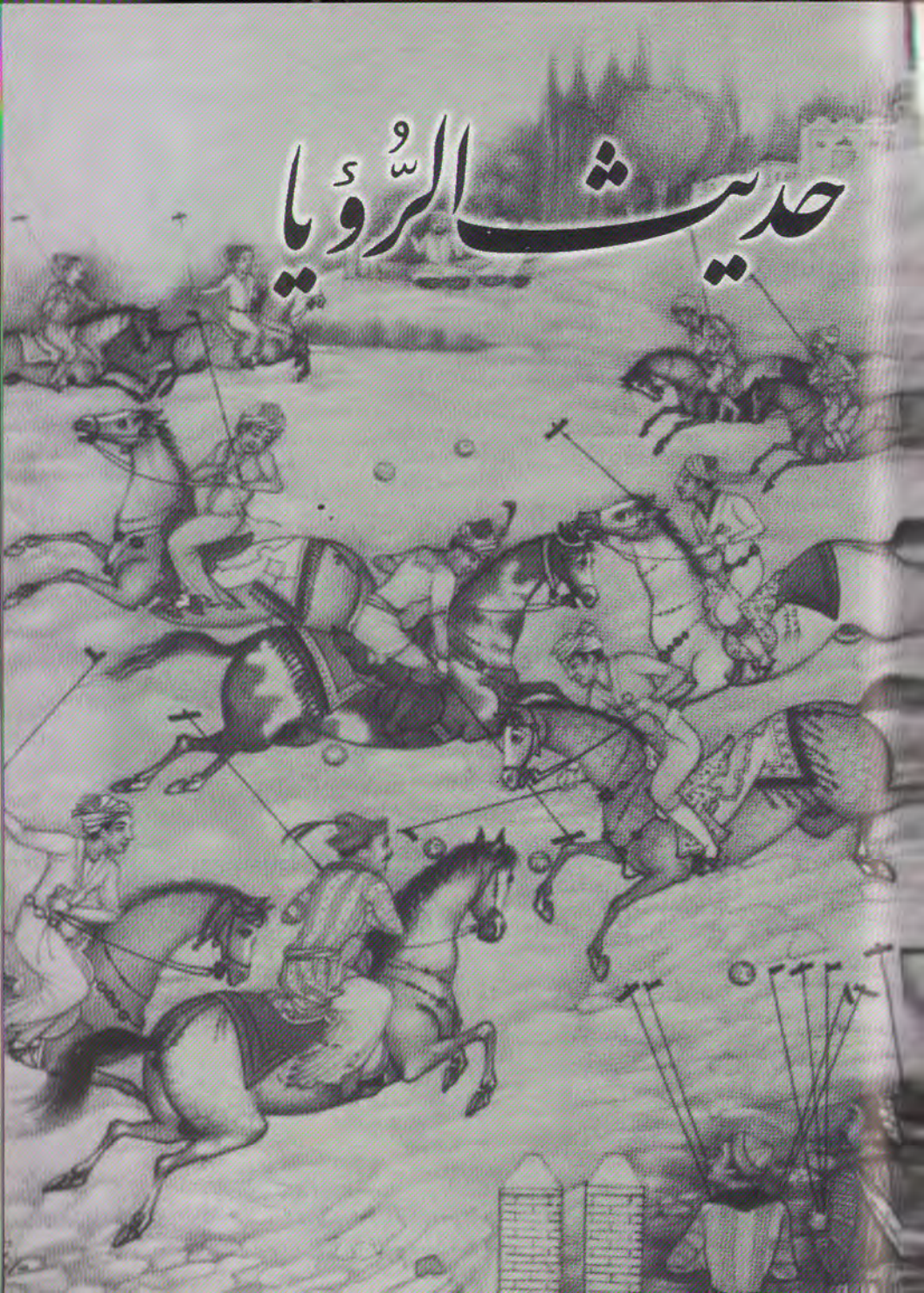

حديث الرؤيا

حدَّثَ أبو الأصبحِ العشَّابُ قالَ :

قَدِمَ رجلٌ من الكوفةِ يسألُ عنْ أبي الفرج ليَعْبُرَ له رُؤْيا بعدَ أنْ أشارَ عليه بذلكَ منْ يعرفُ أبا الفرج ، فقلنا له : إذا كانتْ ليلةُ سَمَرِنا حينَ يكتملُ البدرُ تعالَ ؛ فكانَ . .

قال الرجلُ :

يا أبا الفرج ، أريدُ أن أَقُصَّ عليكَ رُؤْيايَ علَّكَ تَعْبُرُها لي . . .

قال أبو الفرج :

إذن أُنصِتْ . .

قال الرجلُ :

إني رأيتُ قوماً صفرَ الوجوهِ قَدِمُوا إلى حاضرةٍ عظيمةٍ ووضعوا في ساحَتِها قُبَّةً من نُحاسٍ ، وصَبَغوا المآذنَ بلونٍ أصفرَ ، وعلَّقوا على الكنائسِ أقمشةً صفـراءَ كتـبُ عليهـا بخـطٍ رديءٍ : « خاناتٌ للإيجارِ » .

رَشُّوا الناسَ بصباغٍ أصفرَ ، ساروا بأعلامٍ صفراءَ . . ملؤوا الشوارعَ بلهاثِهم

الأصفـرِ ، رَصَّعُـوا الـدروبَ بخطـىً صفـراءَ ، وجـوهُهُـمْ مشـدودةٌ كجلـدِ الطبلِ ، . . بصقَ أحدُهم بصقةً صَفراءَ ظلتْ تَكْبُرُ وتَكْبُرُ حتى سالتْ في كلِّ الدروبِ ! . .

صرخَ قَائِدُهُمْ : لكمُ الويلُ . . .

فخـرجـتْ مـن فيـه طيـورٌ ذاتُ منـاقيـرَ صفراءَ ، أرجُلُها كمحاجنَ ، أكلتْ كلَّ الزيتونِ ، والتينِ ، والتمرِ ، والعنبِ ،

سـاروا . . ألبستهُـم ، أحـذيتهُـم ، شعورهم ، بشراتهم ، نظراتُهم ، كلها صفراءُ . . جاؤوا بكبشٍ يجرونَهُ إلى

الساحةِ ، أخرجَ قائدُهُم سكيناً وذبحَ الكبشَ ابتهاجاً بالنصرِ . . وسالَ الدمُ

أصفرَ وظلَّ يسيلُ ، ويسيلُ ، حتى غطَّى المدينةَ كلَّها ، أغرقَ كل شيء حتى القبَّةَ النحاسيَّةَ ، ولمْ يبقَ إلا رأسُ مِئْذَنَةٍ ، وناقوسُ كنيسةٍ . .

ثم حَدَثَ دويٌّ ، فانزاحَ الأصفرُ ، وسالَ دمٌ كان هذه المرة قانياً ، أحمرَ . . أحمرَ . . أحمرَ . .

فبكى أبو الفرج ! . .

قلنا : ما يبكيكَ يا أبا الفرجِ ؟! .

قال : هي بغدادُ . .

قلنا : وما بغدادُ ؟! . .

قال : حاضرةُ بني العباسِ . . خلفاءُ

سيأتونَ . . يُسْقِطُها أقوامٌ يقدمونَ من خلفِ بحرِ الظلماتِ . . . رسالتُهُم : نشرُ الموتِ . . .

ثم ابتسمَ . . .

قلنا : أضحكَ اللهُ سِنَّكَ . .

وماذا بعدُ ؟! .

قال :

وَعَلى شُرفَةِ الزَّمَانِ شُبُولٌ

وَبِهِمْ مِنْ نورِ الهُدىٰ سِيماءُ

مِنْ رُؤىٰ بَدْرٍ عَزْمُهُمْ صُبَّ بَأساً
مِنْهُ خَوْفاً قَدْ أَقْعَتِ البَأْسَاءُ

فَلَهُمْ مِنْ مُحَمَّدٍ وَعْدُ نَصْرٍ
وَلَهُمْ في جُنْدٍ لَهُ الاقْتِدَاءُ

مِنْ دِماهُم قَدْ أَزْهَرَ الدَّرْبُ فَتْحاً
وَعَلىٰ ذِكْرِهِمْ تَلالاَ الضِّياءُ

قالَ أبو الأصبحِ العشّابُ :

للهِ دَرُّ أبي الفرجِ ، أحزَنَنا وأَبْكانا ، ولكنهُ يعرفُ كيفَ يَبْعَثُ الأملَ مِنْ رَحِمِ الأَحْزانِ ، فَيَشِعُّ كسِراجٍ . . .

حديث الطبع الغلّاب

حديث الطبع الغلاب

حدَّثنا عبد الباري بنُ المباركِ قالَ :

دعاني أبو الفرجِ الطبيبِ إلى دارَتِهِ بعدَ صلاةِ المغربِ من يومِ الخميسِ الحزينِ ، وحينَ استقرَ بنا المقامُ قالَ :

يا أبا المباركِ ، أتذكرُ تلكَ الأمسيةَ من الجمعةِ التي خُيِّلَ إلينا أنها جمعةُ الفرحِ ؟! . .

قالَ عبد الباري بنُ المباركِ :

قلتُ : نعمْ . . ، تَمَسَّحَ بنا منْ لم يكنْ يُدعى حينها « خامدَ السيِّءِ » ، مع أبيهِ الذي لم نكنْ نعرفُ عنه إلا ما يعرفُ قيِّمُ المسجدِ عنْ رجلٍ يؤدي رُكَيعاتٍ ثمَّ ينصرفُ . .

ما عامَلْناهُمْ بدينارٍ ولا بدرهمٍ ، ولا رافقناهُمْ بِسَفَرٍ ؛

ولا أَكَلْنا على سِماطِهِمْ ، ولا جَرَّبْناهُمْ في نَوَائِبِ الحقِّ .

قال أبو الفرجِ :

يا أبا المباركِ . .

لقدْ اغتالَ حُلُمَهَا البِكْرَ . .

وتركَ لها قِرْبَةً من الصبْرِ . .
وصُرَّةً من الذكرياتِ المرَّةِ . .
أَوْلَمَتْ له روحَها ، ففكَّرَ في قصعَةِ أَقِطٍ . . أَعْطَتْهُ بساتينَ من القُرنفُلِ ، ولكن أنفه كان مُعَطَّلاً برائحةِ جلودِ الأنعامِ التي يُصَنِّعُهَا مع أبيه . .
أرادتْ أن تأخذَ بيدهِ ليَعْبُرَ بوابةَ الدهشةِ ، ولكنه سَمَّرَ عينيه وروحَه على بواباتِ الخمولِ . .
أرادتْ أن تكونَ له غيمةً دافئةً ، تَنْشُلُهُ من صقيعِ الروحِ ، وأَصرَّ يبحثُ عن خِرَقٍ لَيْلِيَّةٍ يلفُّ بها قَدَمَيْه علَّهُ يدفأُ . .
أرادتْ أن تـأخُـذَهُ إلـى حـدودِ الحلـمِ

المستحيلِ ، ولكنه أصرَّ أن يظلَّ مَعَلَّقاً على شوكٍ عقيمٍ في باديةِ السماوةِ . . لوَّنَتْ له أصابعَ يديها عشرَ فراشاتٍ ، وخبَّأَ لها قنديلاً ليحرقَ تلكَ الفراشاتِ . .

بكلِّ الإخلاصِ والطفولةِ فاحَتْ بعطرِ التفاحِ ، وفكرَّ هو بالسكينِ كيفَ تقطعُ التفاحَ . . .

حين أهْدَتْهُ صورةً لعصفورٍ على فننِ شوقٍ ، لفَّ بها يوماً قطعةَ قديدٍ كانتْ عنده . .

أرادتْ أن تَعْبُرَ به بوابةَ الضوءِ ليسافِرَ على قوسِ قزحٍ ، لكن البُنِّيَّ الداكنَ عَشَّشَ في كيانِه . . .

سكبتْ من عذاباتِها عشرينَ دمعةً ،

وعشرَ آهاتٍ . . فقالَ : السُّبْحَةُ ثلاثٌ وثلاثونَ . . .

حين يَئِسَتْ منه وَهَرَّتْ عن وجههِ كلَّ بوحِ الحدائقِ النابعةِ من عينيها وغادرتهُ ، مشى مثلَ حكايةٍ تائهةٍ في دروبِ باديةِ السماوةِ ، وما زالَ أهلُ الربعِ يشيرونَ إليه قائلينَ :

أرادتْ أن تصنعَ منه أميراً ، ولكنَّ الطبعَ غلاّبٌ . .

قال عبد الباري بنُ المباركِ :

يا ليتنا اجتمعنا بأبي الفرج ، وما كان لهذا « الخامِدِ السيِّءِ » وجودٌ ! . .

حديث الطمأنينة

حديث الطمأنينة

حدَّثتنا نسوةٌ من الربعِ قُلْنَ :

سأَلَتْ أمُّ أَنسٍ أمَّ سعدٍ العامريةَ ذاتَ بدرٍ :

يا أمَّ سعدٍ . . هل تحفظينَ شيئاً من حكايا « حَلاَ » ؟! . .

قالتْ أمُّ سعدٍ :

لِمَحْضِ سرابٍ هَدَرَتْ أربعَ ورداتٍ ،

وَوَقَفَتْ فوقَ بقاياها ، تَقيسُ المسافةَ بين القلقِ المتربصِ خلفَ مقلةِ أبيها ، وحزنِ قلبهِ ، الذي بلغَ الرشدَ منذُ ادَّعى « خامدُ السيِّءُ » أنه ابنُ الطيبينَ ! . .

فَوَجَدَتِ المسافةَ عدَّةَ قرونٍ ، وبضعَةَ بوادي . .

أرادتْ أن تَصْرُخَ ،

فغابَ صوتُها . . .

وبكى السكونُ . .

وعلى أُفُقِ صِفِّينَ ، رأَتْ الإمامَ عليه السلام ، يقولُ لها :

بُنَيَّتي . .

قدرٌ لنا أن نُظْلَمَ ، وأن نُذْبَح . .

فَمِمَّ أنتِ وأبوكِ تَشْتَكيانِ ؟! . .
هلْ لأن أمَّكِ اشترتْ بطاقَةَ دخولٍ إلى
عالمِ « خامدِ السيءِ » ؟! . .
إنه يا بنيتي قدرٌ مكتوبٌ . .
وليسَ من المكتوبِ هروبٌ ! . .

شَرِقَتْ بدمعتِها ، فتراءى لها القمرُ على
الأفقِ اثنين . .
الأوَّلَ من دمٍ ،
والثاني من رمادٍ . .
فعرفتْ أنهما لا يصيرانِ واحداً ! . .
زمانُها دمٌ . .
وزَمَنُهُ رمادٌ . .
والإمامُ ، عليه السلامُ ، قالَ :

إذا عَجَنْتَ الرَّمادَ بالدَّمِ
صارَ لَبِنَةً كالعَدَمِ
فالرمادُ موتٌ
ومن الدمِ حياةٌ ، وصوتٌ

لم تصرخْ ،
بل حَمَلَتْ جَرَّة أحزانِها المُعَتَّقَةِ حينَ اكتملَ الهمُّ ، وغادَرَتْ تخومَ الخرابِ الذي بناهُ « خامدُ السيءِ » بجدرانٍ من لهبٍ وسقفٍ من دُخانٍ ، فوجدتْ أمها قَدْ أتْعَبَها الصبرُ وهي تنتظرُ على تَلَّةِ « الحُلْمِ ـ الوَهْمِ » مُشَرِّعَةً يديها كصليبٍ ، تُخَوِّفُ بهما غربانَ الخَوْفِ ، علَّ « حَلاَ » تعودُ في المساءِ إلى بيتٍ للحبِّ صغيرٍ ! . .

هَمَسَتْ حلا : أمي . . أنتِ بَيْتي وأَهلي
لأنَّ كلَّ ما بقي عندَ « الخامدِ السيءِ »
غرفةُ نومٍ مهدمةٌ في بيتٍ عندَ تخومِ
الضَّياعِ . .

قالتْ أمُّ سعدٍ العامريةُ :
فقالتْ أمُّ « حلا » :
شَمْسُهُ بنيتي مطفَأَةٌ ،
لا يعرفُ نَبْضَ الوُدِّ
ولا دفءَ الودادِ
يَدِبُّ الثلجُ في فيافي روحِهِ ، وينامُ على
تلَّةٍ من العُقَدِ ، وفي جفنيهِ رمادٌ . .

قالت « حلا » :

هكذا قالَ جدي الإمامُ

عليه السلامُ

ورانَ السكونُ . . .

ثمَّ فاحتْ رائحةُ طمأنينةٍ كأنها المطلقُ .

تقولُ أمُّ أنس :

ما أرى إلا أَنَّهُ أَفْسدَ عليهِ دينَهُ حين أفسدَ عليها دُنياها .

المحتوى

المحتوى

الصفحة

- تعريف بالشاعر ٧
- الإهداء ١٥
- هذا الكاتب.. هذا الكتاب ١٧
- استهلال ٢٧

الكتاب

- حديث الإبل الشاردة ٣٣
- حديث التحسب ٣٩
- حديث « حلا ووادي التحسب » ٤٣
- حديث « حلا وخامد السيىء » ٥١

الصفحة

- حديث ناكر الجميل ٦١
- حديث درب التوجع ٦٩
- حديث التشظي ٧٩
- حديث عبد الحق ٨٧
- حديث الفتيا ٩١
- حديث الرؤيا ٩٩
- حديث الطبع الغلاب ١٠٧
- حديث الطمأنينة ١١٥
- المحتوى ١٢٣

هذا الكتاب ليس سوى مدونة عرفانية
تبحث في المحجوبات والنائيات الذاهبات
في الأسرار العميقة، مهدية قلبها صوب آفاقها
هؤلاء الأفذاذ الخوالد الذين كتبوا (البيان والتبيين)
و(الامتاع والمؤانسة)، و(أحاديث الخلان وسارات
الإخوان).

كتابٌ للدكتور محمد صالح الأرناؤوط، هذا الرجل
المشغل بالطيبات كالدوالي.. والذي لا يستطيع المرء
أن يضعه في خانة معرفية يعينها لسعة ثقافته،
وبعد نظرته.. وإنا رفعنا في حيز معرفي واحد فإنه
يظلم مؤانسه اجتماعاً كاجتماع ميدان الحبق كيفما
تحركت أزرقه، وكتابة أشبه بأوتار الكمنجات
كيفما مُسّت أطربت.